

الفصل الثالث عشر

كوتاهية

اشتهرت قونية بأنها « مهد الدولة العثمانية القديم ^(١) ». وقد عرف إبراهيم ذلك ، وشعر بأهمية النصر الذي أحرزه فيها ، ومبلغ تأثيره في شعور العثمانيين . ولكنه لم يضرب على هذه النغمة في الخطاب الذي كتبه إلى محمد علي في ٢٨ ديسمبر سنة ١٨٣٢ ، بل حصر اهتمامه في الناحية السياسية لهذا النصر . وكان يعرف أن القناصل يضيقون الخناق على أيهه ، ولذلك اغتتم هذه الفرصة ليكرر له وجهة نظره فكتب إليه يقول :

« إن الصدر الأعظم الآن مع الجيش ، وفي وسعنا أن نرحف على الآستانة ونخلع السلطان على الفور من غير عناء ؛ ولكنني أحب أن أعرف بأسرع وقت هل ترغبون حقاً في تنفيذ هذه الخطة ، لأن تنفيذها يتطلب الاستعداد له من الآن . أما أنا فأعتقد أن مشاكلنا يجب أن تسوى في الآستانة لا في غيرها من الأماكن ؛ ففي الآستانة إذن يجب أن نكون لكي نملئ إرادتنا ونحقق مطالبنا ؛ وأرجو أن تسمحوا لي بأن أصرح الآن بأن الدعاية ليست هي السبيل إلى الوصول إلى هذه المطالب ؛ فإذا كان في نيتكم أن نهدد الآستانة ، فلا فائدة من الوقوف عند قونية ومنعنا من الزحف عليها .

« ذلك بأن قونية بعيدة عن الآستانة ؛ وأن أولى الأمر فيها لا يجنحون للسلم

(١) دون في كتابه « بعثة البارون بوالكنت » السائف الذكر ص ٦ .

ويعقدون الصلح معنا إلا إذا دخلنا العاصمة . ولا أخالكم قد نسيتم أنهم لم يعقدوا الصلح مع الروسيا إلا بعد أن وصلت جيوش القيصر إلى چكمه جه^(١) في جوار الآستانة ؛ ولذلك يجب علينا أن نسرع بالتقدم إلى بروصة على الأقل ونحتل البلاد الواقعة على ساحل بحر مرمرية ، وتتخذها قواعد بحرية لتوین جيشنا . وإذا وصلنا إلى ذلك المكان سهل علينا نشر الإشاعات التي تؤدي إلى إسقاط السلطان . وحتى إذا عجزنا عن خلعه فإننا لن نعجز عن إملاء شروط الصلح التي نرغب فيها .

وقد أفرغ إبراهيم في هذه الرسالة من قلبه على قلمه ، ولم يمنعه إجلاله لأبيه من أن يضيف إليها هذه العبارة :

« لولا الأمران اللذان صدرا إلى منكم أخيرا ووقفتم بهما زحفي لكننت الآن على أبواب الآستانة ؛ ولظالما سألت نفسي عن سبب هذين الأمرين أهو خوف أوروبا أم سبب آخر لا أعلمه ؟

« وأرجو أن يصلني رأيك في هذه المسألة الأخيرة قبل أن تضع الفرصة السانحة ؛ وإني لن انتظار أوامرکم الصريحة »^(٢) .

ولم تقف الحكومات الأوروبية مكتوفة الأيدي حينما كان إبراهيم يدافع عن رأيه هذا الدفاع ؛ بل بدأت هذه الدول حمايتها قبل أن يهزم رشيد باشا في موقعة قونية . فاستقبل السلطان في ٢٧ ديسمبر سنة ١٨٣٢ رسول القيصر الخاص الجنرال مورافيف Muraviev في جوسق يلدز ؛ وأبلغه في هذا الاجتماع أن القيصر نيقولا Nicholas يضع أسطوله تحت تصرف الباب العالي ليرجع به محمداً

(١) إحدى ضاحيتين بهذا الاسم وهما بيوك چكمه جه (الكبيرة) وكوچوك چكمه جه (الصغيرة) . العرب

(٢) المحفوظات الملكية المصرية بسرأي عابدين بالقاهرة القسم التركى .

علما إلى صوابه ؛ ويظهر أن الآستانة لسبب لا نعرفه كانت تجهل وقتئذ أن الصدر الأعظم قد هزم . كذلك يلوح لنا أن هناك خطأ في التواريخ ، ولكنها تواريخ رسمية لا يسعنا إلقاؤها . ومهما تكن حقيقتها فإن السلطان قد ظل حتى يوم ٢٨ ديسمبر سنة ١٨٣٢ يجهل أن جيشه قد ذهبت ريحه ، وأن لا قوة عثمانية تستطيع أن تمنع إبراهيم من أن ينقض على الآستانة .

ومع أن محموداً مسلم يؤمن بقضاء الله وقدره ، فقد استولى عليه الرعب حتى ظن أنه سيسمع عما قليل دوى المدافع تطاق على إسكدار . وكتب متولى أعمال السفارة الفرنسية إلى وزارة خارجيته في ٣١ ديسمبر سنة ١٨٣٢ يقول إن السلطان قد ارتعدت فرائصه فرعا ، فألقى بيديه إلى التهلكة^(١) ، إذ أرسل من فوره رسولا إلى السفارة الروسية ينبئها بقبول ما عرضه عليه القيصر ، دون أن يستشير رجال ديوانه . وجاء هذا القرار ضغثا على إبالة ، فتمددت الأمور بسببه ، واستاء منه الوزراء وعدوه ماسا بكرامتهم ، لأنهم لم يستشاروا فيه قبل صدوره . وقد يكون سبب استيائهم أن السلطان أضع عليهم فرصة تمسكهم من أن يهدنوا مشاعرهم النائرة بنفحة من الروبلات الروسية .

وهاج هائج القائم بأعمال السفارة الفرنسية حتى كاد يطير لبه من شدة الغضب ؛ وعرف أن أمير البحر روسن Roussin قد عين سفيراً في الآستانة ، وخشى أن تعزو وزارة الخارجية الفرنسية عمل روسيا إلى إهماله ، فيضر ذلك بمسقبله ، لاسيما وهو يوشك أن يستبدل به غيره . وكان هو وطني النزعة ، وكانت وطنيته هي الوطنية الفرنسية أي الوطنية الحادة المتطرفة ؛ ولذلك أخذ هو أيضاً ينظر إلى المسألة نظرة واسعة ويفكر في المصالح الفرنسية الهامة التي تتأثر بهذا الموقف ؛

(١) دون في كتابه « بعثة بوالكنت » ص ٩ .

فرأى أن شخصية محمد على أصبحت في المكانة الثانية ، وأن المسألة المصرية قد غطت عليها مسألة أخرى أعظم منها خطراً ، تلك هي : « هل يسمح لروسيا بأن تكون الحاكمة بأمرها في الآستانة ؟ » .

وسرعان ما وافقت الحكومة الفرنسية على هذه الفكرة التي ارتآها على عجل البارون ده فرن Baron de Varenne الشاب الذي كان يتولى مؤقتاً حماية المصالح الفرنسية لدى الباب العالي . وأسرع الدوق ده بروجلي الذي كان يعرف الأمور في السكى دور ساي^(١) فكتب إليه يقول :

« إن الدولة العثمانية تمحى من الوجود إذا دخل الجيش الروسى أرضها وانتشر فيها ، بحجة رد محمد على عنها ؛ وأطلقت الحرية للأسطول الروسى يخوض عباب الدردنيل والبسفور ، ويرسو تحت أسوار السراى . ولا تستطيع الدول الأخرى وبخاصة فرنسا وإنجلترا أن تقف مكتوفة الأيدي ، تنظر إلى السلطان وهو يتخلى عن سيادته ، دون مبالاة أو مقاومة »^(٢) .

وفي الوقت الذى كانت فرنسا تبلغ فيه محدوداً بأنها لا تسمح لروسيا بأن تكون صاحبة الأمر والنهى في الآستانة أمر ميمو قنصل فرنسا العام فى الإسكندرية أن يبلغ محمداً علياً :

« أن الدول لا تتردد فى أن تقف قواتها مجتمعة فى وجه محمد على لترغمه على أن يبحث مع الباب العالي شروط الصلح ؛ وذلك فى نظرها خير من سماحها لروسيا بأن تتدخل فى شؤون الآستانة ، فتستطيع بذلك جيوش القيصر أن تتوغل فى آسيا الصغرى ، وتمكن نفوذها فى السراى السلطانية »^(٣) .

(١) مقر وزارة الخارجية الفرنسية .

(٢) بمئة بوالسكنت ص ٤ .

(٣) بمئة بوالسكنت فى نفس الصفحة .

ولم يقف الفرنسيون عند هذا الحد ، بل فعل ده قرن أكثر من هذا بفضل ما أوتى من مقدرة وكفاية ، وإن كان من الصعب على الرجل الدبلوماسي أن يبرم أمراً في الوقت الذي ينتظر فيه قدوم خلفه ، وذلك لأن موظفي وزارات الخارجية لا يرمقون بأعينهم إلا صاحب المنصب الجديد ، أما الموظف القديم فإنهم لا يأبهون له . وكان كل من في الآستانة وقتئذ يعلم أن أمير البحر روسن سيحل محل ده قرن ؛ ومع ذلك فقد أوتى ده قرن من الكياسة والمهارة في أعمال منصبه ما جعله يفهم الوزراء الأتراك أن الواجب عليهم أن يحاولوا إقناع السلطان برفض ما عرضته عليه روسيا . وبلغ من إلحاح السر عسكر خسرو باشا على محمود ونصحه له بأن لا تفتح تركيا أبوابها لعدوتها الوراثية ، أن جثا على ركبتيه أمام مولاه وأخذ يؤيد مطلبه بقوله إنه يتكلم باسم الديوان كله^(١) .

وأكبر الظن أن موراثيف وصلته أنباء هذه الدسائس كلها ؛ فأراد أن لا تفوته الفرصة السانحة . ولذلك أسرع في الذهاب إلى الإسكندرية لكي يبلغ محمداً علياً أن روسيا ستدخل في الأمر إذا واصل إبراهيم الزحف ، وأثبت الإسكندرية أن تدعن لما لا بد من الإذعان له . وأرسل موراثيف قبل سفره أحد رجاله المدعو الكولونل دو هامل Duhamel إلى معسكر إبراهيم ليبايعه نفس هذه الرسالة^(٢) . ولكن هذا العمل لم يفل من عزيمته ده قرن والسر عسكر والوزراء الآخرين ، بل قابلوا هجوم مراقيف بهجوم آخر مثله ليحبطوا به عمله . وما زالوا بالسلطان حتى أرسل من قبله رسولاً خاصاً إلى محمد علي . وكان هذا الرسول هو خليل باشا ، القبطان باشا السابق ، وهو رجل ذو شخصية رائعة ؛ وكانت مهمته أن

(١) المصدر عينه ص ١٦ .

(٢) كدلقين وبرو في كتابهما السالف الذكر ص ٣٣٨ .

يبلغ التابع الصنديد عفو السلطان عنه ، واعترافه بولايته على عكس وملحقاتها .
ولم ينس ده قرن قلمه في ذلك الوقت ، بل كتب إلى محمد علي رسالة شخصية
أكد له فيها أن « خليلاً باشا قد فوض إليه رسمياً أن يسوى المشاكل جميعها ،
وأن يعمل على إزالة ذكريات الماضي السيئة^(١) » . ولم يغفل ده قرن أمر إبراهيم
بل كتب إلى بطل قونية يقول :

« لم يبق الآن ما يبرر مواصلة القتال ، ولذلك أرجو أن تعلموا أن تبعة مايسفك
من الدماء ستقع على من يبدأ بالعداء . ولما كانت الحرب ستضاعف الصعاب
القائمة في سبيل التسوية المعروضة على بساط البحث الآن ، فإنكم سترون من
المناسب أن تقفوا زحفكم وتأمرؤا الضباط التابعين لكم ، بأن يحذوا جميعاً
حذوكم^(٢) » .

وتسلم ده قرن رد إبراهيم في السادس والعشرين من يناير سنة ١٨٣٣ . ولم
نطلع على الصورة الأصلية لهذا الرد ، ولكننا نعلم من التقرير الذي أرسل إلى
باريس أنه أجاب بقوله إنه لا يستطيع أن يقرر شيئاً حتى يتلقى أوامر أبيه ، وإنه
يرجو الباب العالي أن يسمح له بأن يقضى الشتاء في بروصه ، وإن هدفه الثاني
هو كوتاهية^(٣) . وارتعدت فرائض السلطان فرعاً لهذا الرد ، فاجأ إلى وسائله
القديمة ، وأرسل من فوره رسالة إلى السفير الروسي ليطلب إلى القيصر أن يستعد
بجيوشه في بلاد القرم وعلى ضفاف الطونة ، لتقديم المعونة له إذا تقدم إبراهيم
بمحيشه . وقد فعل ذلك من تلقاء نفسه ومن غير أن يستشير وزراءه . وقبل
ده قرن هذه الحال الطارئة بنشاطه المجهود . ولما تباحث في الأمر مع الرئيس أفندى

(١) دون في كتابه « بوالسكت » ص ١٦ .

(٢) المصدر عينه في نفس الموضع .

(٣) المصدر عينه في نفس الصفحة .

الذى كان محمود قد ضمه إلى رأيه ، أجابه هذا الجواب المربك :

« إما أن تضمن لى عدم تقدم إبراهيم وإما أن توافق على أن نلجأ من فورنا إلى روسيا . وليس فى الوقت متسع للأخذ والرد ، فإن فى استطاعة إبراهيم أن يصل إلى أبواب الآستانة بعد خمسة عشر يوماً ، ولا يستطيع الروس أن يبلغوها فى أقل من هذا الوقت »^(١) .

ولما رأى دى قرن نفسه فى هذا المركز المستصعب ، وكان يعرف أن أمير البحر روسن يوشك أن يصل إلى الآستانة ، دفعته شجاعته إلى أن يضمن للرئيس أفندى طلبته ، أو بعبارة أصح وعد أن يكتب إلى إبراهيم رسالة لا يشك فى أنها ستؤدى إلى الغاية المطلوبة . وبأدر إلى ذلك من فوره فأرسل مذكرة إلى إبراهيم مؤرخة ٣٠ يناير سنة ١٨٣٣ ، أوضح له فيها أنه إذا لم يقف الجيش المصرى عن التقدم فإن « الباب العالى سيخطر وهو آسف كل الأسف إلى أن يقبل المساعدة التى تعرضها عليه روسيا » .

وقد أخطأ ده قرن خطأ كبيراً حين كتب هذا الخطاب . ولا شك فى أن الذى دفعه إلى ذلك هو حرج مركزه ؛ فقد كان إبراهيم وروسن كلاهما يجد فى السير إلى الآستانة ، وتلك حال توقع فى الخطأ كل إنسان ، حتى الرجل الدبلوماسى الذى حنكته تجارب المنصب ، ولذلك يجب علينا أن لا نفرط فى لومه . لكنه كان يجب عليه أن يعلم أن إبراهيم لا يخشى القيصر ولا ترهبه جيوشه ، وأن القوة الوحيدة التى تستطيع وقفه هى أوامر أبيه . فإذا قيل له إن روسيا توشك أن تتدخل فى الأمر ، كان ذلك بمثابة أمر له بالإسراع فى زحفه ، وإشعاره بأن تباطؤه يعرضه لأشد الأخطار ، وأن الواجب يقضى عليه بأن يصوب مدافعه

إلى قصر السلطان قبل أن يصل الروس إلى الآستانة .
على أن إبراهيم بدأ زحفه قبل أن يصله هذا الخطاب . فلما وصل نبأ هذا
الزحف إلى السلطان اضطكت له مسامعه ، فاتصل بالسفارة الروسية وطاب في
هذه المرة إلى الميسو ده بوتنيف M. de Boutenieff سفير القيصر في الآستانة
أن يئده بأسطول عليه خمسة آلاف من الرجال ، ياتي مراسيه في القرن الذهبي ،
وأن يعد فوق ذلك حملة حربية يتراوح عددها بين خمسة وعشرين وثلاثين ألفاً^(١) ؛
وأمر محمود الرسول بأن يبقى في السفارة حتى تصدر الأوامر لإحدى السفن بالسفر
حاملة تلك الطلبات المستعجلة .

وبينما كانت هذه الرسالة رسالة « أدركنى ولما أمزق »^(٢) تمضى في طريقها
إلى روسيا لا تعطف على شيء ، كان إبراهيم على بعد خمسين ساعة أو نحوها
من الشاطئ الأسيوى المواجه للآستانة . وهناك كتب رده على الرسالة التي بعث
بها إليه ده قرن في ٣٠ يناير . وهناك ما كتبه إلى القائم بأعمال السفارة الفرنسية :
« صديقي النبيل العالم المحب الفطن الميسو ده قرن » . وبعد أن قال له
إبراهيم إنه تلقى رسالته المؤرخة ٣٠ يناير سنة ١٨٣٣ وعرف ما انطوت عليه من
محبة وصداقة ، ذكر له أن السبب في رحيله من قونية وسيره إلى بروسة أن أول
المكانين لا يصلح لقضاء فصل الشتاء ، ثم ختم خطابه بقوله : « وقد وصلنا الآن
إلى كوتهية حيث تطيب لنا الإقامة في الشتاء ، وسأبقى بها إطاعة لأمر أبي وولي
نعمتى ، حتى أتلقى منه أوامر أخرى . وقد أبلغت ذلك إلى الباب العالي ، ورجائى

(١) كدثين وبروس ٣٥٠ .

(٢) في الأصل الإنجليزى « أدركنى يا كبس ولما أغرق » وهى مأخوذة من وصف

كاسيس ابوليوس قيصر في رواية شيكسبير . (المعرب)

أن أكون قد حققت رغائب سعادتك لأن ذلك يبعث السرور في نفسي»^(١) .
وتبين من هذا الخطاب أن لا فائدة ترجى من مفاوضة إبراهيم . نعم إنه كان
رجل حكم وإدارة ، كما كان رجل حرب وكفاح ، لكن موقفه من الأعداء
والحايدين كان موقف الجندي فحسب ، شعاره الوحيد « الطاعة » تلك الطاعة
العمياء الصماء التي لا تشوبها شائبة ، والتي كان يعنيها شلر بقوله : « على واجب
أؤديه لا رأى أبديه » . فكان الواجب على ده قرن والحالة هذه أن يحرك من
سكون محمد علي ، وإلا سارت الأمور سيرها الطبيعي .

ولم يكن ذلك ليغيب عن عقل الدبلوماسي الفرنسي ، ولذلك لم يدخر وسعاً
في الضغط على باشا . ولكن الباب العالي لم يكن مع الأسف مخلصاً صادقاً في
عمله ؛ وآية ذلك أن التفويض الذي أعطاه خليلاً باشا لم يكن التفويض الشامل
الذي لا بد منه في مثل هذه الأحوال . فلما تمكن خليل ومحمد علي من وضع
مشروع للتسوية ، كان لا بد أن يقره السلطان ، لأن المهمة التي انتدب لها
قد حددت تحديداً لا يجيز له قبول تلك التسوية . ولكن على الرغم من هذا لم
يرده قرن حرجاً في أن يكتب بتاريخ ١٣ يناير سنة ١٨٣٣ من الإسكندرية إلى
وزارة الخارجية الفرنسية والسفارة الفرنسية في الآستانة يقول :

«لقد وضعت الحرب أوزارها ، وخبت نيران القتال في كل مكان ، ولا يحتاج
الناس كلهم أدنى شك في قبول الشروط التي اقترحها محمد علي وأرسلها خليل باشا
إلى الآستانة»^(٢) .

وقبل أن تصل صورة هذه الرسالة إلى السفارة الفرنسية ، قدم أمير البحر

(١) كدلفين وبروس ص ٣٥٠ .

(٢) بوالكتت تأليف دون ص ٢٠ .

روسن وتقلد مهام منصبه ، ثم قدم أوراق اعتماده في ١٧ فبراير سنة ١٨٣٣ . ولم يكن ده قرن قد أبلغ أن السلطان عدل عن رأيه مرة أخرى ، وأنه احتاط هذه المرة فأرسل رسولا خاصا إلى روسيا يستقدم جيشها وأسطولها على الفور . وقدم أمير البحر الذي أصبح الآن سفيرا مزهوا بلباسه الجديد المحلى بالذهب البراق زهوه يوم لبس حلة الضابط الأولى . وخيل إليه أنه قد بدأ مهمته في ظروف طيبة موفقة ، وكان لا ينفك يقول : « نعم هذا أمر حسن يسرني كل السرور . حقا إن هذا ينشر بالخير . » وأكبر ظننا أنه كان يعتقد أنه بلغ ما يصبو إليه ، حينما تاتي في مساء اليوم الثامن عشر من فبراير سنة ١٨٣٣ مذكرة من الباب العالي يقول فيها :

« لما كان صاحب الجلالة الشاهانية قد قبل المساعدة التي عرضتها عليه دولة روسيا ، فإنه لا يشترط للصالح غير انسحاب الجيوش المصرية » ^(١) .

عند ذلك استشاط السفير غضبا ، فأرسل في صباح اليوم التالي يطالب مقابلة الرئيس أفندي ^(٢) في الحال . ومع أن دواوين الحكومة كانت كلها معطلة لأن اليوم يوم عيد ، فقد تمت المقابلة ؛ وهدد ده قرن بأن يطالب جواز سفره ، وثار ثورة اضطرت وزير الخارجية التركية أن يعده بأن يرسل على الفور تعليمات إلى السفارة الروسية وإلى أودسا وسباستيول بإلغاء طاب النجدة السابق إرساله . ولم يكتف الرئيس أفندي بذلك ، بل وافق على أن يعرض على روسن نص الشروط التي تقبل تركيا بمقتضاها أن تتفاوض مع محمد علي ^(٣) .

وعاد السفير الفرنسي إلى مقر عمله مغتبطا بالنتيجة التي وصل إليها في

(١) المصدر عينه في نفس الموضع .

(٢) وزير الخارجية .

(٣) بوالكنت ص ٢١ .

حديثه الرسمي الأول مع وزارة الخارجية العثمانية . وخيم الضباب في تلك الليلة على شواطئ البسفور ، فلما انقشع تكشف عن ثمان بوارج حربية روسية ألقت مراسيها في الليل على بعد خطوات من « سراي فرنسا » . وفي ذلك يقول روسن لرئيسه : « لقد تملك قلبي وعقلي في هذه اللحظة شعور من الألم لم أشعر بمثله من قبل . وكان الطريق الذي على أن أسلكه في هذه الظروف واضحاً أمامي كل الوضوح ؛ فأمرت ترجمان السفارة أن يذهب إلى الباب العالي ليعلم أن تدخل روسيا بهذه الصورة جعل وجود السفير الفرنسي أمراً لا داعي له ، ولذلك فإنني سأصدر أوامري بعدم إنزال أمتعتي إلى البر » ^(١) .

وأيقن روسن أن بلاغه النهائي قد أوقع الرعب في قلوب الأتراك ، بدليل ما جاء في رسالته التي كتبها إلى باريس يقول فيها :

« و بعد ثلاث ساعات أقبل الرسل يقولون إنهم جاءوا من عند السلطان والسر عسكر ، يطلبون مساعدة فرنسا في هذه المشكلة الخطيرة ، وإنهم يقبلون في الحال رسمياً ومن غير قيد ولا شرط أن يرفضوا مساعدة روسيا إذا ضمنت لهم عقد الصلح على أساس القواعد التي اقترحها خليل باشا » ^(٢) .

وبعد أن أفاض روسن في أهمية هذه الشروط ومقدار ما نزل عنه الباب العالي بموجبها ، أخذ يصف ما حدث بلغة ارتفع بها إلى أسنى درجة من الاعتداد بمنصبه فقال :

« ثم نظرت أخيراً إلى من كان حولي فألفيت ممثل إنجلترا كأنه غارق في سباته ، ولكنه يريد أن يشترك في أي عمل يمنع تدخل روسيا في المسألة .

(١) المصدر عينه في نفس الموضع .

(٢) المصدر عينه ص ٢٢ .

وأما في دور السفارات الأخرى فلم أجد إلا تردداً ، بل وجدت في بعضها وبخاصة في السفارتين النمساوية والبروسية أدلة الجفاء نحونا ظاهرة جليلة .

واستمر بعد ذلك في وصفه جاءلاً نفسه مدار الحديث كما فعل من قبل فقال : « وكان لا بد من أن نصل في المسألة إلى قرار حاسم ؛ ولأجل أن هذا القرار يجب أن يكون القرار الذي توحى به مصالح فرنسا ومصالح معظم الدول ؛ وخيل إلى أن الغرض الأساسي الذي يجب أن نسعى إليه هو المحافظة على كيان تركيا واستقلالها ، باخراج الأسطول الروسي من مياهها . ولم أتردد قط في الاضطلاع بالتبعة التي ألقتها الظروف على عاتق بالرغم من العوائق والعواقب التي كان يخبئها لي المستقبل » .

واستمر يضرب على هذه النغمة نفسها فقال :

« وعلى هذا الأساس استقر قراري . ولما تأكدت أن الرسولين يمثلان السلطات التركية حقاً قلت لهما :

« إنني أقبل اقتراحكما ، وأضمن لكما باسم حكومة الملك أن يعقد الصالح بين الباب العالي وباشا مصر على الأساس المقترح ، بشرط أن تصدر الأوامر على الفور بنقض الأوامر الأولى الخاصة بطلب مساعدة روسيا ، وبشرط أن يرسل الأسطول الروسي من البسفور بمجرد اعتدال الريح » ^(١) .

وأتبع السفير الفرنسي هذا القرار بثلاث رسائل ، بعث بإحداها إلى محمد علي وبالثانية إلى إبراهيم باشا وبالثالثة إلى ميمو . ولم يكن في مقدوره أن يرسل تلك الرسائل بالبرق لأن الأستانة في ذلك الحين لم تكن تعرف مثل هذه الاتصالات ؛ ولم يطلب روسن في الخطاب الذي أرسله إلى إبراهيم في ٢٢ فبراير سنة ١٨٣٣

(١) المصدر عنه في نفس الموضع .

وقف الزحف فحسب ، بل طلب إليه أيضاً أن يرتد إلى الحدود المصرية الجديدة ، لكي يعرف الناس أن الحرب التي اصطَلُّوا ناراها قد وضعت أوزارها حقاً^(١) . وكان الروح الذي كتبت به هذه الرسالة روحاً طيباً بقدر ما يمكن أن يكون في مثل هذه الرسائل من روح طيب . ولكننا قد عرفنا من قبل أن إبراهيم لا يهتم قط بما يقوله القنصل الفرنسي أو غيره من الناس ، وأنه لا يغير هذا القول أدنى التفات ، وإنما الذي يهتم ويتأثر به هو رغبة محمد علي . ولذلك دل روسن على جهله المطبق بالطبيعة البشرية حينما سلك مع الباشا هذا المسلك .

لكن اغتباط أمير البحر بنجاحه الدبلوماسي في إخضاعه الأتراك لإرادته ، جعله يظن أنه يستطيع أن يفرض إرادته أيضاً على المصريين . ولذلك أرسل خطابه إلى ميمو قنصل فرنسا العام بالإسكندرية مع رسول خاص ، وأمر الكاتبين أوليفييه ياوره أن يسلمه إلى القنصل يدأ بيد . وقيل له مع الأسف أن يبقى في الإسكندرية ويشيع فيها ، إذا ما أظهر محمد علي شيئاً من التردد : « أن الضباط الفرنسيين الذين في خدمة الحكومة المصرية سيعتزلون مناصبهم عند أول إشارة من فرنسا ، وأن أميري البحر الفرنسي والبريطاني على اتصال دائم بمجرى الحوادث ، وأنهما قد تلقيا أوامراً واحدة وحشدا قوتيهما وأصبعا متآبهين للظهور تجاه الشواطئ المصرية عند أول إشارة تصدر إليهما »^(٢) .

وأكبر ظننا أن العالم ما كان ليعرف شيئاً عن هذه التعاليمات الغريبة لو أن الذي أصدرها عرف حقيقة الاتفاق الذي تم بين خليل باشا ومحمد علي . ولكن روسن مع الأسف عجز عن معرفة ما يفهمه الباشا من هذا الاتفاق ، ولما هم ميمو

(١) المصدر عينه ص ٢٥ .

(٢) المصدر عينه وفي نفس الموضع .

بأداء واجبه بأمانة وإخلاص وأراد أن يُنفذ ما حمله السفير من التعليمات ،
لم يوافق محمد علي بطبيعة الحال على ما أراد . فلما رأى الكابتن أوليفيه منه هذا
التردد لم يسعه إلا أن يطيع الأوامر الصادرة إليه ، كما يقضى به الواجب عليه ،
وأخذ يذيع ما أمر بإذاعته .

وبلغ ذلك مسامع الباشا فلم يطق صبراً عليه . ولما تأكد أن مصدر
الإشاعة هو الكابتن أوليفيه أملى على ميمو خطاباً قال فيه : « إنه لا يستطيع
قبول اقتراحات تعد بمثابة الحكم عليه بالموت السياسى ، وأنه يترك الأمر لله ،
ويفضل الموت الشريف على النقيصة والعار »^(١) . ثم أرسل بلاغاً نهائياً إلى
الباب العالى يطلب إليه أن يتخلى له عن بلاد الشام جميعها ومنطقة أطنه ، وأمهله
خمسة أيام ليقبل فيها طلبه ؛ فإذا لم يصله الرد فى خلالها صدرت الأوامر إلى إبراهيم
بالزحف على الآستانة^(٢) .

ثم استدعى بعدئذ خليلاً باشا وشرح له ما حدث . ولم يفارقه فى هذا الشرح
ما اشتهر به دائماً من الحيلة الشديدة وتعريف عقبي ما يفعل .

ولما عرف المندوب التركى حقيقة الأمر استطير له روعا ، وأكد أن
الآستانة لم تغدر به ، ولم تنكث عهداً أو تنقض الأوامر التى أصدرتها له بنصها
أو روحها ؛ وطلب أن يسمح له بإرسال رسول خاص إلى الباب العالى ليعرف
جلية الأمر ؛ فوافق الباشا على هذا الطلب ، ولكنه لم يسحب بلاغه النهائى ، ثم
كتب إلى إبراهيم بهذا المعنى :

« قد أنبتك عنى فى كل شىء ، وخولتلك بذلك الحق فى أن توقع باسمى

(١) مورييه فى كتابه السالف الذكر جزء ٣ ص ٢٢٦ .

(٢) المصدر عينه جزء ٣ ص ٢٢٧ .

معاهدة للصالح إذا قبلوا شروطي ؛ فإذا تأكدت بالدليل القاطع أن هذه الشروط قد قبلت ، وجب عليك في هذه الحال أن تنسحب إلى حدود البلاد التي أعطيت لي . أما إذا أصروا على حصرى في داخل الحدود التي لا أراها محققة لرغبتى ، فعليك أن تواصل زحفك كما يتراءى لك ، متبعاً في ذلك الخطة التي تراها ملائمة للظروف المحيطة بك »^(١) .

ومما زاد الأمور تعقيداً أن باريس لم ترض عما فعله السفير الفرنسي^(٢) ، إذ تبين لها أنه تخطى الحدود التي رسمت له . لكنهما لم تنكر عليه عمله جهره ، لأن الأسطول الروسى لم يبرح البسفور . وكان سبب بقائه أن السلطان قد بر بوعده فأبلغ سفير القيصر في ٢٣ فبراير سنة ١٨٣٣ أنه أصبح في غير حاجة إلى معونته ، وأن انسحاب قواته أصبح الآن أمراً لازماً^(٣) ، وأظهر ده بونتيف منتهى اللطف شأنه في ذلك كشأن سائر الدبلوماسيين الرسميين ، فهم رجال قد تخصصوا في ذلك ومرتوا عليه ، فلم يرفض أن يسحب قواته ؛ وقال إنه دعى قلبى الدعوة ، وأنه لا يفكر قط في البقاء حتى ينبو به موضعه . وفي الحق أنه وعد أن يبرح البلاد بمجرد اعتدال الريح . ويقول دون إن يوم ٢٨ فبراير سنة ١٨٣٣ كان يوماً ريحاً ، وكذلك كان غيره من الأيام ، ولكن القائد الروسى لم ير هذا الرأى ولم يبرح بلاد الأتراك ، وأخذ السفير الروسى يبدى أسفه الشديد لأن الريح تعانده وتأتى بما لا تشتهى سفنه .

(١) دون في كتابه السالف الذكر ص ٣٦ .

(٢) مورييه في كتابه السالف الذكر جزء ٣ ص ٢٣٠ .

(٣) دون في كتابه السالف الذكر ص ٣٧ .